الباب الرابع

التكليف

لم يخلق الله سبحانه الإنسان عبثاً ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إلينا لا تُرجعونَ﴾[1] بل خلقه لأمر هام، وهو الخلافة في الأرض. لذا ميزه عن سائر مخلوقاته بالعقل والعلم والإبداع وحب الاستطلاع والاستنباط والاختراع، وبكثير من الصفات العالية الجسدية والروحية مما جعله أهلاً ليدير مملكة الأرض. كما بسط يده فيها وسخرها له كما سخر له أيضاً السماوات ﴿وَسَخَّر لكُمْ مَا في السَّماواتِ وما في الأرضِ جَميعاً مِنْهُ إنَّ في ذَلِكَ لآيات لِقومٍ يَتفكَّرون﴾[2].

وآتاه التمييز بين الحسن والقبيح والضار والنافع والحق والباطل ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجدين﴾[3] و . . . الخ وطلب منه البحث العلمي وسياحة الأرض والتنقيب والتدقيق والتبصر وإشغال الفكر والجسد ﴿قُلْ سِيروا في الأرضِ فانظُروا﴾ (أوَلَمْ يتفكَّروا، قِلِ انْظُرُوا، أفلم يروا)، (إن في ذلِكَ لآياتٍ لِقومٍ يتفكرون، لقوم يعقلون، لعلكم تتفكرون، لعلكم

---

(١) المؤمنون ١١٥.

(٢) الجاثية ١٣.

(٣) البلد ١٠.

تعقلون) . . . إلى آخر ذلك مما دعى المسلمين إلى إعمال الفكر والبحث والتعليم مما جعلهم علماء الدنيا ومخترعيها. وهكذا أوجد الإسلام أهم علم وأجدى عمل وهو البحث العلمي الذي أصبح الآن مقياس رقي الأمم وارتفاعها ونجاحها.

وقد أرسل الله رسوله الكريم ﷺ ليعلن للناس كافة قول الله عزّ وجل: ﴿هُو أَنْشأَكُمْ مِنَ الأرض وَاستعمَركمْ فِيها﴾[1] أي لتزرعوها وتعمروها وتخرجوا كنوزها وتعملوا فيها وتقيموا العدل وتنشروا الحرية والأمن والمحبة.

وطلب الله سبحانه من الإنسان أن يتصل به كل يوم مرات فيقبل عليه ويسمع كلامه ويستجيب دعاءه فيعلمه ويهديه ويسدد خطاه. كل ذلك لمصلحة البشر لأن الله غني عنهم.

فإن أحسنوا وأطاعوا وأخلصوا لله وعملوا، سعدوا في الدنيا ولهم في الآخرة أجور عملهم وهي الجنة والرضوان. وإن أساؤوا عاشوا في بؤسٍ ونكد وجزاؤهم في الآخرة النار.

من ذلك يتبين أن الإنسان موظف عند ملك الملوك برتبة خليفة في الأرض يعمل القليل من الجهد ﴿لا يُكلِّفُ اللَّهُ نَفساً إلا وُسْعَها﴾[2] والزهيد من الزمن، مكرماً عزيزاً ومردود العمل كله لمصلحته ثم له الجزاء الكبير.

---

(١) هود ٦١.

(٢) البقرة ٢٨٦.

هذا التكليف بينه الله في كتابه العزيز وشرحه الرسول الكريم وهو هذا:

الفصل الأول

العبادة

١ ـ العلم: هو أول العبادة وعنوانه هو (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ثم: معرفة أوامره ونواهيه. فلا إله إلا الله هي معرفة الله ومعرفة صفاته. فالله واحد أحد لا تدركه الحواس لأنه ليس كمثله شيء ولا يتخيله العقل ولا يدركه الوهم. وإنه معك أينما كنت يراك ويحصي عليك عملك وتفكيرك ويحاسبك عليها وعلى ما تعزم عليه وتنوي عمله بكل دقة وعدل.

بيده خير الدنيا والآخرة، وإنه قد جعل قوانين يسير عليها الكون ومن فيه ولا تعيش بدونها كالشبع الذي يأتي بواسطة الطعام والري بسب الشراب والخ. وإن هذه القوانين لا تنطبق عليه بل هو فوقها وإذا شاء عدَّلها أو ألغاها.

وكل عمل تعمله تنوي فيه طاعة الله ورضاه يثيبك عليه وكل ذنب أو شر لا تفعله امتثالاً لأمر الله يثيبك عليه أيضاً. وإنه يسمعك فادعه يستجب لك.

وهو محب لك وصديق، وليس لك بعدو. يعاملك أفضل معاملة ويطلب منك أن تعامله بالمثل وذلك باتباع رسوله

الكـريم من إيمـان وعلم وعمل ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[1].

٢ ـ الصلاة ـ ولا إسلام بدونها لأنه «من ترك الصلاة فقد كفر»[2] ولأنها تصل الإنسان بربه مباشرة بعكس باقي الطاعات فالصدقة تتصل بها بالفقير، والصوم مع نفسك والجهاد مع الأعداء، أما في الصلاة فأنت مع الله مباشرة لا حجاب بينكما إلا حجاب الكبرياء وقصور الحواس عن إدراكه.

تبدأ الصلاة بالوضوء وبنظافة الجسد والقلب من مشاغل الـدنيا ووسـاوس الفكر، ثم إقبال على الله بفرح وبشاشةٍ وإيناس. تتقرب إليه وتعترف بفضله وتعظم شأنه، وتطلب منه ما تريد وتتعلم من آياته وتتمثل أمره.

يرضي بها الإنسان ربَّه ويروض فكره إذ يخشع في الصلاة ويركز تفكيره فيما يقول ويتصور، فتقوى إراداته ويتحكم في تفكيره. والصلاة أيضاً رياضة جسدية غير مجهدة.

٣ ـ الصوم: وفيه استعلاء عن الشهوات والامتثال والانقياد لرب العباد، وتقوية شديدة للإرادة، وصحة للجسد، وتخلص من كثير من الأمراض والعادات الضارة والمؤذية، وحض على فعل الخير والكرم.

---

(١) آل عمران ٣١.

(٢) أحمد.

٤ ـ الزكاة: وهي بدل عن الربا المدمر للاقتصاد والمشعل نيران الحسد والبغضاء وسبب الفقر والجوع وقسوة القلب والفساد في الأرض.

جعلها الله سبحانه حصة الفقير والعاجز والمحتاج من مال الغني تتألف بها القلوب وتزيل الفروق بين طبقات الشعب وتزيل الحسد والبغضاء والعداوة وتظهرالمحبة والتعاطف بين أفراد الأمة. وتعتق بها العبيد وتصان كرامة كل فقير.

وهي جزء يسير من مال الغني وربحه وعد الله عليها بالنماء والبركة والثواب.

٥ ـ الحج: هو رياضة الروح والجسد. وهو سياحة يتجرد الإنسان فيها من دنياه حتى من ثيابه، مبتعداً عن وطنه وأهله، تاركاً سريره ووسائل متعته ولهوه، وذلك لفترة من الزمن يسيرة؛ طائعاً مختاراً مقبلاً على ربه، ذاكراً كيف ولد ولا يملك شيئاً وعالماً بأنه سوف يموت فيصبح هكذا لا يملك شيئاً. فيعرف ويقدر نعم الله عليه.

ويذكر إن كان عالماً أن طوافه بالبيت حول الكعبة يشبه دوران البروتون حول الإلكترون في كل ذرةٍ من ذرات الكون فهو والكون في عبادةٍ واحدة لله الواحد القهار.

والحج مؤتمر إسلامي سياسي واجتماعي وعلمي واقتصادي. فيه التعارف والتعاون والتخطيط كما فيه مصلحة

المسلمين، وسوق تجارية ومعرض سنوي.

٦ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ولا صلاح للبشرية بدون ذلك. يقوم المسلم بهداية الناس ودلهم على ما فيه سعادتهم ودفع كل شرٍّ عنهم. ﴿**وَالعَصرِ إنَّ الإنسان لَفِي خُسرٍ إلَّا الذينْ آمنوا وَعَملُوا الصالحاتِ وتَواصَوْا بالحقِّ وَتواصوا بالصَّبر**﴾[1].

٧ ـ الجهاد: وهو الرياضة الروحية والجسدية الثانية. تنزع من الإنسان الجبن والخوف والبخل والتعلق بالدنيا وحب الحياة. وهو الدليل على أن الإنسان يحب ربه ويمتثل أمره ويضحي بروحه ورفاهيته ودنياه في سبيله سبحانه. فيكتسب به رضوان الله والعزة والنصر والغنيمة. ﴿**وَجَاهِدوا في الله حَقَّ جِهادِهِ**﴾[2]، ويدفع بالجهاد كيد الأعداء وضرره، وينصر الحق ويدفع الباطل وينصر المظلوم، وينشر الحق والعدل ويوطد السلام.

٨ ـ عمارة الأرض: يطلب الإسلام من المسلم أن يعمر الأرض مادياً ومعنوياً وذلك بنشر العلم والعمل الصالح وإحقاق الحق ودفع الشر «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[3] وإصلاح الأرض من زراعة واستخراج كنوزها وتطبيق كافة الوسائل لتجعلها جنة في الحياة الدنيا حضارة وعلماً وأمناً.

---

(١) العصر.
(٢) الحج ٧٨.
(٣) مسلم.

٩ ـ الاعتدال: وعدم الإسراف في العبادة «هلك المتنطعون»[١] أي المغالون في العبادة فلا إسراف في طعام أو شراب أو رفاهية أو إجهاد، وذلك رحمة بالإنسان وإتقاناً للعمل ﴿**كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾[٢].

١٠ ـ الصبر: و«الصبر نصف الإيمان» ، والصبر على فعل الطاعة كالجهاد والحج والصوم وسواها والصبر عن الشهوات المحرمة والممنوعة والصبر على البلاء، والصبر حين نزول المصيبة «الصبر عند أول الصدمة»[٣]، وقد جعل الله سبحانه لكل طاعة ثواباً معيناً إلا الصبر فثوابه عظيم حتى قال الله فيه: ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾[٤].

١١ ـ الشكر: وأوصى الإسلام بالشكر لكل من أنعم عليك أو دفع عنك مكروها «أشكركم للناس أشكركم لله»[٥]، وأول المنعمين وكاشفي الضر هو الله سبحانه وإنه ليرضى من الشكر أن يذكر الإنسان في نفسه أن الذي أنعم عليه هو الله. وأن يشكر الله بلسانه وأن يستعمل النعمة فيما يرضي الله. والله يثيب على الشكر والحمد الزيادة في النعم في الدنيا ﴿**لَئِنْ شَكَرتُم لأزِيدَنَّكُمْ**﴾[٦]، ودخول الجنة قبل غيرهم «أول من

---

(١) مسلم.
(٢) الاعراف ٣١.
(٣) البخاري.
(٤) الزمر ١٠.
(٥) الطبراني.
(٦) ابراهيم ٧.

يدخل الجنة الحمادون، الذين يحمدون الله على السرَّاء والضرَّاء»[1].

١٢ ـ المعاملة: وتكاد تكون المعاملة الدين كله، فقد قال رسول الله ﷺ: «الدين المعاملة» ، ونجد معظم ما في كتب الفقه أحكام المعاملة. وذلك لأنها تشمل معاملة الوالدين بالإحسان والطاعة والأولاد بالتربية والرعاية، والأرحام بالبر والإحسان. وكذا الزوجة والجيران والأصحاب. والمعاملة الحسنة في البيع والشراء، والحاكم والمحكوم، وحتى في الحيوانات والأعداء، وقد جعل الله سبحانه لكل من هؤلاء قوانين وأحكاماً.

١٣ ـ فعل الخير: وهو أهم ما أُمر الإنسان به ﴿**يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون**﴾[2]. ووجوه الخير كثيرة من مادية ومعنوية وكل ما يفعله المؤمن إذا نوى فيه إرضاء الله ونفع الناس كان فيه الثواب العظيم «الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»[3]. فهداية الناس وتعليمهم ومعاونتهم وإدخال السرور عليهم وإغاثة الملهوف وسواها. سواء في الأمر الصغير أو الكبير حتى «تبسمك في وجه أخيك صدقة»[4].

---

(١) الحاكم.

(٢) الحج ٧٧.

(٣) أبويعلى.

(٤) مصابيح السنة.

١٤ ـ اجتناب المعاصي: وقد حرم الله سبحانه كل ما يضر بالإنسان وحتى بالحيوان والنبات والبنيان إن كان في ذلك لا فائدة منه أو فيه قسوة وتعذيب. كالقتل والسرقة والزنى وشرب الخمر والتدخين والمخدرات والربا والغش وغير ذلك. وكل المعاصي لا تضر الله شيئاً بل تضر الإنسان والمجتمع أو هي تخريب والله أمر بعمارةِ الأرض وتزيينها.

وهكذا جاء الإسلام بكل ما هو ضروري ونافع وحرم ما هو ضار وسيء.

الفصل الثاني

الموت في الإسلام

﴿كُلُّ نَفس ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾[1] فكل ذي حياة من إنس وجن وملائكة وسواهم سيموت. والموت لأول وهلة صعب شديد كما حدث الرسول ﷺ: «لم يلق ابن آدم شيئاً قط خلقه الله أشد عليه من الموت. وإن الموت لأهون مما بعده»[2]. لذا أوصى الرسول بالرفق في ذبح الحيوان والإسراع في إماتته «إن الله كتب الإحسان على كُل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[3]. وقد تصاحبه آلام مختلفة الشدة. وأهون موت هو موت الشهداء «ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من مسِّ القرصة»[4].

أما الكافر فيتعذب عذابين عذاباً جسدياً وعذاباً روحياً وأخروياً لأنه أول عذاب يناله. وأعجب موت هو موت الفجأة لأنـه «مـوت الفجـأة راحـة للمؤمن، وأخـذة أسفٍ على

---

(١) الانبياء ٣٥.

(٢) احمد.

(٣) مسلم.

(٤) الترمذي.

الفاجر»[1]، فالمؤمن يعلم أنه سيموت وسيحاسب على عمله فاستعدَّ له من صالحات الأعمال والبراءة من كل ذنب أو سوء عمل فهو ينتظر جزاء عمله ولا بد من الموت لذا «يستأذن الموت على العاقل، ويدفع الباب على الغافل» والمنافق وفاعل السيئات والفاجر إذ فوجيء بأسوأ شيء في حياته. لقد عمل طيلة حياته في جمع المال فلم يتنعم به وتركه لسواه، وربما كان يريد أن يتوب وأن يعمل الخير وأن يعبد الله كما أمر، وأن وأن... ولكن مع الأسف لم يمهل ولا ثانية.

فإذا مات المسلم وجب بعد التأكد من وفاته الإسراع في دفنه. وهذا أمرٌ مشروع صحياً وذوقاً وتخفيفاً عن الأهل والأحباب.

ولا يكاد يستقر في مثواه حتى يأتيه ملكان يسألانه «من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ»[2] فيأخذان روحه ويصعدان بها إلى السماء حيث توضع في مكان تهدأ به إلى يوم القيامة.

وإن الكافر والمنافق والمسرف على نفسه والظالم فلا يجيب على الأسئلة فيضربان روحه ضربة تغوص بها في باطن الأرض حتى تصل إلى المائع الناري وحرارته (٦٠٠٠°) وأكثر يتعذب بها إلى يوم القيامة ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبوا بآياتنا واسْتكبَروا عَنْها لا تفتَّحُ لَهُم أبوابُ السَّماء ولا يَدخُلونَ الجنَّة حَتَّى يَلِجَ**

(١) احمد. (٢) مصابيح السنة.

الجملُ في سَمِّ الخِياط﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه»[2].

هذا مفهوم الموت لدى المؤمن وهو أول منزلٍ من منازلِ الآخرة. لذا يستعد له المؤمن ويطمئن إلى قدر الله ولا يجزع له ويرى أن ما بعده أفضل مما هو فيه ويأمل أن يلاقي من كرم الله وعفوه ما يجعله في نعيم.

والموت عند المسلم كالامتحان عند التلميذ حافز كبير للعمل الصالح والمعاملة الحسنة ومانع عن السيئات والظلم. والمسلم في رجاء وخوف وصبر على عنت الحياة وقسوة الدنيا فلا يأس ولا انتحار ولا تبرم ولا شكوى. وحرم الإسلام قتل الإنسان نفسه واعتبره كالكفر لأن المنتحر تحدَّى الله وردَّ عليه نعمة الحياة لذا «من قتل نفسه بحد يده فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً فيها أبداً. . . الخ»[3]، «أقلل من الذنوب يهن عليك الموت»[4].

---

(١) الاعراف ٤٠.

(٢) ابن ماجه.

(٣) البخاري.

(٤) الشهاب.